obeikandl.com

جون و. آندرسون

الفصل الثاني عشر

الترابط

فرق الإنترنيت بالنسبة للشبكات الإسلامية

إن الإنترنيت آخذة في تغيير وجه الشبكات الإسلامية. ففي غضون مرحلة تزيد قليلاً على عقد من الزمن ولا تصل إلى عقدين، فإن نماذج متنامية من التنوع الفعلي في العالم الإسلامي، والمصالح الإسلامية، والمشاريع الروحية والاجتماعية الإسلامية قد وجدت أصواتها أو جاءت بها إلى الأداة المتميزة لعصر المعلومات فيما بعد الحداثة. فمن الممكن العثور هناك الآن على كل أنماط التعبير المنتظم، وظلال الآراء والمواقف بشأن مواضيع لاهوتية وعملية ذرائعية. والنموذج متخالف غير متماثل، ولكن ليس فقط في صالح نشر رسالة ما. بل هو متأثر بطابع الأداة، وأساليبها في الوصول أو الإنتاج، وموقعها في مجال اجتماعي عابر للقومية يحذف بعض حالات التخالف ويدخل أخرى. وينطوي هذا المجال على أكثر من أداة جديدة، فهو يشمل السكان، بالمعنى الفعال، الذين يشاركون فيه، وبأية صفات، ومن الذي جاء على الخط أولاً؛ والاستجابات لأعمال أولئك الناس، بينما تطورت الإنترنيت من بداية متواضعة إلى

بروز علني عام كي تعيد تشكيل المجال العام للإسلام.

إن تقطيع هذه العملية ـ بل العمليات المتعددة المتداخلة في الواقع ـ يمكن أن يكون صعباً بشكل شيطاني. فالقصة ما تزال آخذة في التفتح والانتشار، والتجارب جارية. كما أن التفاعل الآخذ في التطور في الإنترنيت مع مجيء تقنيات جديدة إلى الخط يقدم مستوى غير عادي من الاستجابة «للسوق» الدينية للرسائل الإسلامية، والخطاب، والتشبيك، التي تتطور كلها مع العالم الأوسع الذي تخاطبه، والذي تنصبّ فيه. وقد اختفى جزء من القصة بالفعل، فنأى عن الخط وابتعد تماماً، بينما استمرت الإنترنيت ومعها العالم في التحرك من المرحلة الأولية لجلب الدين على الخط في أعمال تقوى لتأدية الشهادة إلى مرحلة أكثر تعقيداً من إحداث استراتيجيات رسمية في عالم من السلطات المتعددة، والمتصارعة، التي تواجه معارضة. وبينما اجتذبت المعارضة والتعددية معظم الانتباه إلى ميدان الإنترنيت الإسلامية (بانت 2000، مانديفيل 2001)، فإن المنظور الأشمل يتطلب تفسيراً أكمل لكيفية تفتح مثل هذه الحركات على بعضها بعضاً وكيفية تجذرها في الممارسات، وكيفية نقلها للسلطة.

إن مفهوم «الاستراتيجيات الرسمية المسيطرة» هو واحد من عدة مفاهيم قدمها بورديو لإعادة تركيز النظرية الاجتماعية على نطاق من الممارسة أوسع مما يقدمه المفهوم التركيبي التجريدي للفاعلين ذوي الطابع الاجتماعي الكامل (1977). إن فكرة بورديو فيها شيء من التشابه مع المفاهيم الموقرة، مثل «إضفاء الشرعية»، ولكنها مثل أفكار أخرى في قاموسه تهدف إلى قلب افتراضات أولوية القيم، والنوايا، وحتى المعرفة، على العمل، وإعادة صياغة تلك المفاهيم الداخلية كممارسات للحياة الاجتماعية، مدرَكَة وغير مدرَكَة ـ وليس فقط كتنظيمات وتعاليم وتصورات مفهومية ـ وقد عبر بورديو عن تشكك عميق في تفسيرات الأعمال باعتبارها تفسيرات للأعمال، وتشكك بالتالي في الحركات التي تعطي مغزى، مثل إضفاء الشرعية، التي تترك حالات التمثيل على مجال من التسامي المتصاعد، إلى جانب العمل، ولكنها محدِّدة له ومعرِّفة به. وكان لا يرى في حالات التمثيل ـ في الأساطير والطقوس في المجتمعات البدائية التي يعرفها المختصون بعلم الأعراق البشرية، والعقلنة في

المجتمعات المتعلمة والبيرقراطية ـ أنها نمط من العمل، بل يرى أنها نمط من الممارسة الاستطرادية المتنقلة، كحركات في حقل من الممارسة العملية. وقد جادل بأن مثل هذه المحاولات «لتنظيم» الأمور بما يتمشى مع العادة ليست سوى نوعية من الممارسة الرسمية المتزمتة التي سمتها الموضوعية البارزة هي «تحويل المصالح «الأنانية» الذاتية الخاصة (أي الأفكار التي لا يمكن تحديدها إلا ضمن العلاقة بين وحدة اجتماعية والوحدة الاجتماعية المتضمنة لها على مستوى أعلى) إلى مصالح نزيهة، جماعية مشروعة، متاحة لعامة الناس» (1977، ص40). ومن أجل تحديد هذا التحول كشيء اجتماعي وعملي بدلاً من نظيره التصوري المستقل، أحال بورديو العملية إلى سياقات يغيب عنها العنف «حيث يمكن ممارسة العمل السياسي فقط عن طريق تأثير الالتزام بالرسميات المتزمتة الصارمة، وبالتالي الافتراض المسبق بوجود **الكفاءة**... المطلوبة من أجل التعريف الجماعي للوضع بطريقة تقربه أكثر من التعريف الرسمي للوضع، وبذلك يتم كسب وسائل حشد أكبر مجموعة ممكنة، إذ أن الإستراتيجية المعاكسة تميل إلى تقليص الوضع نفسه إلى مجرد قضية ذاتية خاصة» (ص40، والتأكيد موجود في النص الأصلي).

ومن الواضح أن الإشارة إلى «الكفاءة» تنطوي ضمناً على ما هو ثمين وقابل للعمل بالقوة المحضة أو بالوسائل المادية وحدها. وفي الوقت نفسه، فإن تركيز بورديو على «الكفاءة» يضع الأعمال التي تحقق بالقوة على المستوى نفسه مع تلك التي تتحقق بالوسائل المادية. فتركيزها هو على الإذعان، لا على التوافق. فالعملية التي يبحث فيها بورديو ويعالجها بمفهومه عن الاستراتيجيات الرسمية الصارمة ليست عملية تجعل التفسيرات أكثر تسامياً. ومثل مفاهيم أخرى كثيرة، فإن هذا المفهوم يفترض مسبقاً وضعاً من الصراع والموارد بصورة أساسية، ولكن صراع من نوع خاص يسميه «جدل الرسمي والمفيد» (ص41). وهذا توتر معروف في الخطاب الديني، كما هي المحصلات المرغوب فيها ـ حيث تصبح الأسباب الخاصة أسباباً مشتركة، أو أن يتم اجتذاب دعم أكبر عدد ممكن من عامة الناس لهذه الأسباب.

والإسلام على الخط online يعرض العديد من أنواع هذا الجدل، ليس فقط بين

الكفاءة في الدين وبين ممارسات الإنترنيت، ولكن أيضاً بين الكفاءة في كل منهما والممارسة في كل منهما. إن مرونة الإنترنيت المطواعة ومداها غير المحدود على وجه الخصوص يتيحان لها أن تسهل مثل هذا الجدل التركيبي والتحول. وهي تفعل ذلك ليس فقط بتقديم وسيلة، أو حلبة، أو أرضية جديدة ـ رغم أنها تفعل ذلك ـ بل أيضاً بما تسميه ديل إيكلمان (1992) «تكنولوجيات عقلية» بديلة، أو بتعبير أكثر تواضعاً: تقنيات خطابية واستراتيجيات تحليلية كان صعود التعليم الجماهيري على مدى جيل كامل، ولاسيما التعليم العالي الجماهيري، سبباً في إدخالها إلى الخطاب الديني الشعبي عبر العالم الإسلامي. ورغم التباين من بلد إلى آخر، فإن الاتجاه العام كان توسعاً ملحوظاً في التعليم الدنيوي المدرسي منذ أن فازت الأمم الإسلامية باستقلالها الذي، كما تلاحظ إيكلمان، يشكل مناقشة للإسلام لا توجهها تفاسير العلماء التقليدية، وتسهم في «إصلاح إسلامي» متواصل من التفسيرات البديلة التي تصارع ضد السلطة التقليدية بصورة ضمنية عندما تصبح عامة وعلنية، وكثيراً ما تفعل ذلك بصراحة في محتواها (1998). فالإصلاح الإسلامي لم يقتصر فقط على الانتقال إلى الخط من مجال الطباعة، حيث تطور في المرحلة نفسها تزايد قوي في النشر الإسلامي (إيكلمان وآندرسون 1997؛ وغونزالز ـ كويجانو 1998)، كما أن الإنترنيت أصلها في هذا العالم من التعليم الدنيوي، وهي تسهم بممارستها المحددة، وكذلك بالملامح المشتركة للتعليم العلمي ـ الفني الحديث، والفلسفة التحليلية الكامنة تحته، في توسيع مساحة وحجم محتوى الخطاب الإسلامي، والمحاورين المسلمين، والسلطات الإسلامية.

وتتقاطع الإنترنيت مع الإحياء المعاصر للخطاب الإسلامي على هذا المستوى الشعبي الدنيوي. وتحدد إيكلمان موقع تقنياتها في صعود التعليم الجماهيري، ولاسيما التعليم العالي في البلدان الإسلامية، الذي يقدم تلك التقنيات، ومعها الثقة في استعمالها في نقطة معينة: في أوساط الشتات الإسلامي في أكثر القطاعات تقدماً في المجتمعات الصناعية الغربية. وبينما تُعَرَف الإنترنيت الآن في أكثر مظاهرها شعبية وعمومية كأداة معلومات، فإنها كانت في أصلها تطبيقاً للاتصالات في عالم الهندسة

والعلوم التطبيقية؛ فهي تنقل قيم هذا العالم، وقد فضَّلت المستخدمين الجدد الأكثر شبهاً بمستخدميها الموجودين. لقد قام المهندسون والمختصون بالعلوم التطبيقية ببناء الإنترنيت كأداة لعملهم الخاص بهم، ووسعوها عن طريق استخدامات جديدة لتشمل مستخدمين جدداً شرعوا في استعمالها ووسعوا هذا الاستعمال. فقد جمعت الإنترنيت بين التقنيات المتوفرة كي تخلق مهمات متفاعلة، متعددة المستخدمين، ومتعددة الوسائط الإعلامية، وتشبيكية وضعت في الستينات أجهزة حاسوب على الطاولات وفي مختبرات العلماء والمهندسين، وطبقت الحوسبة على عاداتهم العملية وفي أماكن عملهم كذلك. وما أصبح هو الإنترنيت أدى أولاً إلى توسيع التقانات الموجودة عن طريق برمجة أعطت أنظمة مختلفة القدرة على التواصل فيما بينها بطريقة شفافة في آخر الأمر؛ وبالنسبة للمهندسين، كانت الإنترنيت دائماً برمجيات وأداة كذلك. وكانت خدمة منفذة ببرمجة متروكة في أيدي المستعملين أنفسهم أكثر منها أي شيء آخر[1].

وقد نمت الإنترنيت بطريقتين. فالاتصال مع مكائن بعيدة ومتباينة، أضيف إليه بسرعة اتصال بين مشغليها: فقد أضيف البريد الآليكتروني في عام 1971، وقوائم البريد الآليكتروني في عام 1973، وجاءت الاستخدامات الجديدة بمستخدمين جدد إلى جانب ارتباطات بشبكات البيانات التجارية في عام 1974، ثم المؤتمرات الآليكترونية، أو مجالس النشرات الإخبارية بحلول عام 1980. وفي السياق الاجتماعي لا تتوسع فقط في مجال مَنْ على الخط فحسب، بل كذلك في مجال ماذا على الخط. فعملية التوسع بناها مهندسو الإنترنيت في شبكة الإنترنيت، وصمموها حول عادات عملهم وقيمهم نفسها، وهي الوصول السريع والمفتوح، والتدفق الحر للمعلومات، ونموذج لا مركزي للإدارة، ونموذج تشاركي للمساهمة. وقد راحت تنمو عندما انجذب إليها علماء وأكاديميون باحثون آخرون، مع المحترفين الذين دربوهم، فأضافوا مصالحهم واهتماماتهم إلى تصميمها، وكذلك عندما توسعت مصالح مشغليها الأصليين إلى ما هو أبعد من مهنهم فشملت هواياتهم، وسياستهم، وديانتهم.

وفي هذا السياق تم وضع الإسلام على الخط في الثمانينيات، أولاً على أيدي طلبة

من بلدان إسلامية درسوا وعملوا في بعض معاهد التقانة العليا التي كانت جري فيها تنمية التكنولوجيا أو توسيعها. وكان هؤلاء من بين أفضل الطلبة وألمعهم. وكانوا قد ذهبوا إلى ما وراء البحار للحصول على تدريب متقدم غير متوفر في وطنهم في فروع علمية جديدة، من علم الحاسوب إلى هندسة المواد، وكذلك علوم تطبيقية أخرى كانت آخذة في الاستفادة من ثورة الإنترنيت، من الرسوم البيانية المحوسبة إلى الأعمال التجارية والإدارة العامة. وبقدر ما كان نظراؤهم في هذه الميادين يجلبون مصالح غير مهنية على الخط، فقد جلب الطلبة المسلمون اهتمامات بالإسلام على الخط كأعمال صلاح وتقوى لأداء الشهادة في وسيلة عملهم الجديدة؛ وفي عملهم هذا استغلوا اثنتين من تقانات الإنترنيت في ذلك الوقت، هما تصنيف ملفات المحفوظات ومجموعات المناقشات الآليكترونية.. وكانتا أكثر تكنولوجيات الإنترنيت تقدماً.

وكان ما جاؤوا به على الخط نصوصاً رقمية من القرآن الكريم وحديث النبي محمد التي يرفعها الحداثيون الإسلاميون من السلفيين فصاعداً إلى مصادر الدين وأصوله. وقد تم التقاط بعضها دون شك من ترجمات في مكتبات جامعية، واستعير بعض آخر من تجارب مكتبات رقمية مثل مشروع غوتنبرغ الذي كان يحوسب نصوص المجال العام. كما أوجد الطلبة المسلمون مجموعات مناقشة آليكترونية تمزج المداولة حول الدين مع مسائل حول تطبيق النصوص على الحياة المعاصرة، وعلى قضايا حياة المسلمين في الشتات تتراوح من: أين يمكن العثور على أماكن للعبادة، ومخازن كتب إسلامية، وجزاري اللحم الحلال إلى الأخبار عن وطنهم، والرحلات الجوية الرخيصة، وحتى أمور الزواج والزيجات. والرواد من الطلبة تبعهم المهنيون وغيرهم إلى الشتات، فوسعوا الأشكال على الخط لتشمل رسائل إخبارية رقمية، كثيراً ما كانت موجهة إلى سكان وطنيين معينين، أو مركزة على سكان مسلمين في بلدان غربية معينة.

وكان الشيء الذي ظهر على الأغلب خطاباً مطبوخاً من خليط من اللغات (جون آندرسون 1995) يُلقى بكليته تقريباً بالإنكليزية (يعكس مواقع مهن المشاركين)، وإن كان بالفرنسية أحياناً، مع نقل لحروف هاتين اللغتين إلى العربية أو الفارسية أ لغات

أخرى تطبق على التفاسير الدينية الأساليب العقلية المستمدة من التعليم مثل تلك التي ربطتها إيكلمان (1992، 1998) بانتشار التعليم الجماهيري. وبصورة عامة، فإن مجموعات الناس الذين سلكوا درب العلم والرياضيات في وقت مبكر، ثم استداروا أو عادوا إلى الدين في سن الشباب بعد البلوغ يطبقون الأساليب التي حصلوا عليها في تعليمهم لتفسير النصوص، وهي أساليب لا تشمل التأويلات التقليدية للنصوص في تدريبات المدرسة. وبكلمات أخرى فإن ما جاء به هؤلاء الخبراء التكنولوجيون على الخط كان النصوص – دون السياقات التفسيرية التابعة لتعليم العلماء والفقهاء ـ ومعها مناقشة متجذرة في حياة الشتات تعتمد على مصادر متاحة في شريحتهم الخاصة من تلك الحياة. فكان انهماكهم في هذه المناقشة يدور حول التقاليد التفسيرية للتعليم الإسلامي على وجه الدقة ويراوغ لتجنب تلك التقاليد إما عن قصد وتصميم، وإما بمجرد الممارسة. ومن هنا فـُن تشخيص إيكلمان «لإصلاح إسلامي» المعتمد على التفاعل المباشر مع النصوص المقدسة وتفسيرها استناداً إلى أساس عريض في العالم الإسلامي الأوسع هو بوضوح تشخيص يصف الحالة في عالم الشتات بشكل جوهري، فهذا العالم هو الذي جلب الإسلام على الخط. online.

وإن عملية الطبخ من خليط من اللغات التي ذُكِرَتْ آنفاً قد عملت على عدة مستويات. فعلى المستوى الفكري طُبِّق على النصوص الدينية منطق التحليل العقلي والصبغة التنظيمية التي تتميز بها التربية العلمية الحديثة.وهو نمط يعود على الأقل إلى الرواد التفسيريين للإحياء النهضوي الديني مثل محمد عبده ومولانا أبي الأعلى المودوي اللذين فتحا المجال الذي يسع العلم والدين معاً. وهذه الأرضية الوسيطة التي يلتقي عليها أعضاء جماعات هي نفسها غير متداخلة يعادلها في الأهمية السياق الاجتماعي الوسيط لحياة الشتات، التي انعكست في مواقع تضمنت معلومات عملية عن كيفية ممارسة حياة إسلامية في مجتمعات غالبيتها غير مسلمة في أميركا الشمالية وأوروبا. ومع دخول الشبكة العالمية www راحت هذه المواقع تشمل مواقع لمنظمات إسلامية وطنية في أميركا الشمالية وأوروبا. فحلت هذه المواقع بتعبير أكثر تنظيماً محل الجهود الشخصية المتميزة بوضوح مثل موقع «سليم المسلم السايبري»

الذي كان يقدم معلومات أولية تمهيدية عن الإسلام في مصطلحات للشباب مبسطة سريعة الحفظ والتداول على موقع يدعى «مسجد الأثير» أوجده طلاب وآخرون أتقنوا التكنولوجيا ولكنهم لم يكونوا متخصصين بالدين.

وكما هو مشار إليه آنفاً، فإن هذه المرحلة الأولية تلتها أخرى كان الطابع الغالب عليها هو إعادة النصوص المفقودة أو غير المتكاملة التي وردت في المرحلة الأولية. وكانت المرحلة الأولية تحت سيطرة الخبراء الفنيين التقنيين الذين كان من بينهم مسلمون متقون وآخرون منتقدون وبعض المتحزّبين طائفياً. ولكن ندر فيهم وجود أشخاص تلقوا تدريباً دينياً محترفاً، أو (كما كان يبدو في كثير من الأحيان) أي تدريب ديني يذكر بعد المستويات الأولية الابتدائية؛ وكانت جهودهم مقيدة بالمراحل الاجتماعية والتقنية الأولية للإنترنيت التي كانت تتنامى في عوالم من البحوث والتعليم العالي، وكانت قاصرة على أولئك الذين يعيشون في تلك العوالم إلى أن أدى اختراع الشبكة العالمية www عام 1990 إلى فتح الإنترنيت أمام جمهور أوسع من ذي قبل بكثير. ومع ذلك الانفتاح، انجذب عدد أكبر من الناطقين المؤسسيّين باسم الإسلام ـ وبسرعة ـ إلى هذه الوسيلة، وإلى الإسلام الذي كان قد استقر على الخط فعلاً.. وهم ناطقون لديهم مؤهلات إسلامية أعمق لتمثيل الدين بمصطلحات جماعية أكثر. وكان ما تلا ذلك هو مجموعة محاولات، واستراتيجيات، ومشاريع متعددة الأطراف «لتصحيح» ما وصف بأنه مبتسر، وناقص، وسيء التمثيل.

ولمعالجة جوانب الابتسار، والنقص، وسوء تمثيل الإسلام على الخط online كجزء من مشكلة أكبر، برزت أدوار فاعلة لنوعين واسعين من الاستراتيجيات الرسمية الصارمة على الإنترنيت. فانطلق أحدهما من وجهات نظر مؤسسية قائمة راسخة وناطقين باسمها، مثل تلك القائمة على منظمات تقليدية للدعوة. فنشر هذا النوع مدافعين راسخين وكان مكرساً لمدّ اليد للاتصال بالناس. ولم تكن المواقع الممثلة لهذه الإستراتيجية من إنتاج العلماء بشكل مباشر، بل من إنتاج ناطقين من ضمن المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة، ولم تكن نتاجاً لمخاوف الشتات المقلقة. ومن الأمثلة على ذلك موقع من سفارة المملكة العربية السعودية في واشنطن بمقاطعة

كولومبيا كانت ترسل عليه كراريس عن الإسلام ونصوص تظهر ادعاء الدولة السعودية بأنها حامية الإسلام. وتم خلق مواقع أخرى على أيدي منظمات قائمة للدعوة الإسلامية راحت تقدم دفاعاتها عن العقيدة وتبريراتها لها، وكان جزء من ذلك موجهاً إلى جمهور مسلم أصلاً، وجزء يمد يده للباحثين. ولم يكن منهم عدد كبير جاء من المدارس أو المعاهد التدريبية الأخرى، رغم أن مما له دلالة أن أول موقع من هذا النوع قد أقامته منظمة تبليغي جماعات التبشيرية في باكستان، وذلك في منتصف التسعينيات.

أما الإستراتيجية الرسمية الصارمة المتزمتة الأخرى فكانت أميل إلى المعارضة في لهجتها ومادتها، وخطابها، وكانت مرتبطة بالإسلام «السياسي»، أو «بالنزعة الإسلامية»، كما صارت تدعى في التسعينيات. ولم تكن المواقع التي تمثل هذه الإستراتيجية تتحدث بلغة الدعوة، رغم عمق انغراسها في التبريرات التقليدية للعقيدة، ولكن مع انتقاد ديني مشدد للسلطة الدينية الوطنية والتقليدية ــ ولاسيما السلطات في البلدان الإسلامية ــ التي تعتمد على التجربة الاجتماعية واللغة. وفي دراسة مقارنة للوعظ الإسلامي، صنف ب.د غافني هذا الأسلوب بشكل استفزازي بأنه أسلوب «محارب» يمكن تمييزه عن الأسلوبين الدراسي والروحي بكونه مركزاً على هذا العالم ويعتمد على المعرفة العملية «وبشكل ثقيل على الإشارات العلمية والطبية» (1994، ص43). وقد تمثلت بعض نماذج هذا الأسلوب المبكرة على الإنترنيت في طراز الحركات التي تشدد على النقد الإسلامي للأنظمة العربية، ولكنها استخدمت لغة سياسية. وكان من بينها مواقع مبكرة على الشبكة تمثل مواقف جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر وحركة الإصلاح الإسلامي في العربية السعودية (التي تستهدف الحكومة السعودية)، وكلا الموقعين مقرهما في الخارج، وكلاهما انتقلا إلى الإنترنيت من استخدام مكائن الفاكس وغيرها من الوسائل الإعلامية الصغيرة لنشر رسائلهما (انظر فاندي 1999). وكانت مواقعهما على الشبكة جهوداً فردية إلى حد كبير، أو من إنتاج مجموعات صغيرة، وليس منظمات معارضة كالإخوان المسلمين الذين مقرهم في مصر، أو حركة حزب الله الشيعية في لبنان، رغم أن تلك المنظمات قد جاءت هي الأخرى على الخط بحلول أواخر التسعينيات.

openkanali.com

ومع اختلاف التوجه في طريقتي المعالجة الموصوفتين أعلاه، فإنهما متحدتان باعتبارهما إستراتيجيتين صارمتين تهدفان إلى أن تجلبا إلى الخط online خطاباً عن الإسلام يتمشى مع الأصالة الأوسع والأكثر جماعية (برغم الطابع التنافسي). ولكن الهجرة تأتي «بالتحولات» المعروفة ـ حسب تعبير بورديو ـ فتربطها مع تحركات ديناميكية إضافية ـ بعضها مدفون في التكنولوجيا، وبعضها في العلاقات بين الشتات والوطن، وبعضها يربط بينهما ـ وهي تحركات تعيد تشكيل الشبكات الإسلامية بطرق إضافية خفية دقيقة.

وبحلول أواخر التسعينيات، كانت معظم الجهود الفردية لتمثيل الإسلام على الإنترنيت قد أفسحت المجال للجهود الأكثر اعتماداً على المؤسسات التابعة للحركات، والمدارس، ودور النشر، فتغيرت أشكالها من مواقع معلوماتية ساكنة على الشبكة إلى أحدث المداخل التفاعلية بلغات متعددة. والأمثلة المعاصرة على ذلك تتراوح من Islam 101.com الذي تشرف عليه مؤسسة إيمانية تقدم مواد تعليمية، وخطط دروس، وامتحانات على الخط وكذلك مقالات موضوعية تنشر الآراء الإسلامية حول أوضاع الحياة العصرية الحديثة، إلى Islamworld.net، الموقع الموجه إلى غير المسلمين أيضاً، ولكنه أكثر تركيزاً على الطقوس، والحقوق، والمواضيع التقليدية العادية والمحتوى الاستطرادي للدعوة. وهو مرتبط بمدرسة خدمات إسلامية كاملة في ضواحي العاصمة الأميركية واشنطن بمقاطعة كولومبيا. وحتى المواقع المركزة على الأفراد، أو التي يقدمها الأفراد ظاهرياً تبنّت أشكالاً ونماذج وارتباطات مؤسسية متصلة مع السلطات الدينية. فموقع Bouti.com يقدم أحكاماً دينية، وكتباً، ومحاضرات، ومواعظ للشيخ رمضان البوطي، المفتي السوري الأكبر ذي الشخصية التلفزيونية المشهورة، وذلك بالعربية والفرنسية والإنكليزية، كذراع على الخط لدار النشر المعروفة باسم دار الفكر، التي تتراوح مطبوعاتها من موسوعات المعارف الدينية إلى كتب الأطفال. أما موقع Islamtoday.net الأميل إلى المحافظة (والذي يظهر من محتواه أنه سلفي) فيقدم نفسه على أنه جهد جماعي «لتقديم الإسلام حسب المنهج النبوي والبقاء متحرراً من جميع أشكال البدع والفساد» ولكنه يصف شيخه المشرف عليه، سلمان بن فهد العودة، بأنه يحمل إجازة من المشايخ الذين

درس معهم، وأنه قد حفظ أعمالاً في ذاكرته، وألّف كتباً متوفرة يمكن الحصول عليها من مكتبة الموقع، ومعها فتاوى مصنفة ويمكن البحث عنها. وهذان الموقعان كلاهما متعدد اللغات.

وعلى الصعيد الاستطرادي، فإن الفجوة بين تجارب الشتات والوطن واهتماماتها لن تنطمس فقط بدخول ناطقين ذوي حجة على الخط واستحضار سلطاتهم المؤسسية، بل إنها تنطمس أيضاً بالحصول ــ بطريقة مؤسساتية كذلك، ولو من أصول مختلفة – على خطط دروس للمدارس تعرض على موقع Islam101.com، وتنطمس أيضاً بواسطة المعسكرات الصيفية الإسلامية المقدمة عبر موقع Islamworld.net، وقواعد بيانات الفتاوى القابلة للبحث عنها، وملامح برنامج «اسأل الشيخ» على موقع بوطي Bouti.com وموقع Islamtoday.net. وبطريقة مماثلة وسع الخطاب المعارض نقده ليشمل أشكالاً إضافية من حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية (فاندي 1999، ماندافيل 2001).

إن تكنولوجيا الشبكة العالمية www تدعم مثل هذه التحولات والتداخلات. فهذه التكنولوجيا لم تقتصر على جعل الإنترنيت أكثر شعبية وعموماً، بل جعلتها أيضاً وسيلة نشر أكثر فعالية. بل إن هذه التكنولوجيا قد حولت ميزان الإنترنيت من النماذج المبكرة لآرشيف المحفوظات ومجالس النشرات لصالح «مجهزي المحتوى» اللاحق فيما بعد. وهو مصطلح إنترنيت يميز تصور الإنترنيت كأداة لنقل المحتوى من تركيبها الأميل إلى العقلية التقنية كمنصة لتقديم «الخدمات». ففي أوائل أيام الشبكة، كانت المادة تنقل من الوسائل الأخرى ــ وخاصة من الطباعة ــ، وكان الكثير منها جاهزاً، مثل المواد على مواقع الشبكة المذكورة أعلاه. وهكذا حلت الأصوات المؤسسية محل الأصوات الفردية، ولم تشمل مجالات السوق المباشرة المليئة بالملصقات، والكتيبات، وكتب الشباب (انظر ستاريت 1995). وهكذا فبينما ظهرت الإنترنيت في بادئ الأمر كملاذ للأصوات البديلة غير المؤسساتية، فإنها في الواقع راحت تميل لصالح المؤسسات، وخاصة وسائل الإعلام، في مظهرها باعتبارها الشبكة. وسبب ذلك أن التكنولوجيا متحركة بحيوية، تدفع وتجر الذين

obeikandl.com

تجتذبهم. فإمكانيات الشبكة التقنية، وإمكانيات التباهي بها، تشكل ضغطاً باتجاه سوق وسيطة تأتي (وبشكل متزايد) إلى الشبكة أيضاً سواء من أجل العمل أم من أجل الترفيه في أوقات الفراغ، كما كان يفعل رواد الخبرة التقنية. ومن بين المواقع الإسلامية الواعدة أكثر من غيرها الموقع المسمى «الإسلام على الخط» IslamOnline.net الذي يبرز فيه أشهر واعظ سنّي اليوم، وهو الشيخ يوسف القرضاوي قد تجاوز تكنولوجيا الشبكة الأساسية (ذات الصور أو الكلمات الرمزية التي تنقل المرء إلى صفحة أخرى على الموقع عند الضغط عليها) إلى تقديم مواد جاهزة ومن ثم إلى اعتماد صيغة المدخل الأكثر ديناميكية بتقديم أشياء متعددة وملامح متفاعلة من استطلاعات الرأي على الخط إلى قواعد البيانات التي يمكن البحث عنها. وهذه الأخيرة لا تحتوي على الفتاوى فحسب، بل تضم أيضاً نصائح نفسية عن العلاقات الاجتماعية، وتناقش قضايا الأصهار، وزملاء العمل غير المسلمين، والتزاوج بين أتباع ديانات مختلفة، والفصل بين الجنسين في العمل وفي المدارس، وتربية الأطفال. كما تقدم مواد حول التعليم الديني للأطفال، والمتع الترفيهية، والصحة، والقضايا المعاصرة، وكذلك استيفاء أحدث الأخبار التي يهتم بها المسلمون. وتشترك مداخل إخبارية مع نموذج IslamOnline، مثل موقع البوابة الإنكليزية ــ العربية English-ArabicAlbawaba.com، الذي يستخدم تقنيات شبكية أحدث، من قواعد البيانات القابلة للبحث عنها إلى الواجهات البينية التي يستطيع المستخدم تشكيلها، من أجل جعل موادها مناسبة لمعلومات متعددة الأوجه، والاهتمامات، واللغات[2]. إن توحيد مقاييس تكنولوجيا معالجة النصوص العربية يجعل من الممكن توجيه المواد نفسها، وتوسيع القدرات نفسها إلى جماهير الوطن الأم، التي هي أوسع من الجماهير التي يمكن الوصول إليها باللغة الإنكليزية وحدها.

وفي نقاط التقاطع المفصلية المتعددة الأطراف لهاتين الحركتين، أي حركة توحيد المقاييس وحركة التعريب، فإن امتلاك التكنولوجيا والبثّ الاجتماعي يطمسان بعض الحدود ويشددان توضيح حدود أخرى. فالحدود بين الشتات والوطن تنطمس، بينما

يشتد وضوح الحدود بين محترفي طبقة السكان الوسطى الذين تحابيهم الإنترنيت وبين الفئات الأخرى. وعندما يشتد وضوح الجدود على الخط تتأثر مجالات أخرى – وعلى سبيل المثال فإن الدعوة تتدفق في خطط الدروس والمواد التعليمية للمدارس، وفي المواقع البديلة لإقامة صلات اجتماعية، كالمعسكرات الصيفية والدروس على الخط، وفي أنماط بديلة من التواصل الاجتماعي كالتماس الفتوى أو البحث في قواعد بيانات الفتوى للعثور على شيخ يناسب طبع المرء ومزاجه. وهكذا تأتي الجامعات الإسلامية على الخط بالشكل أو النموذج نفسه وبالطرق نفسها التي تستخدمها الجامعات الدنيوية لتنظيم معلوماتها، وكأنها تعلن عملياً عزمها على منافسة الجامعات الدنيوية وعقد المقارنات معها في سياق العالم البرجوازي عابر القومية.

وعند إحدى النقاط كان من المعتقد أن تأثير الإنترنيت العالمي البعيد المدى ينسجم مع تكاثر البدائل. ويبدو من النظرة السطحية أن ذلك كذلك، مادام التنوع الحقيقي للعالم الإسلامي معروضاً بصورة متزايدة على الإنترنيت، مما يوحي بأن التشبيك الإسلامي يتخذ خصائص سوق. ولكن هناك سبباً للاعتقاد بأن الأمور ليست كذلك. فعندما يرسم بورديو تصوره «للاستراتيجيات الرسمية الصارمة» يبدو أنه يركز على قيام الأفراد بإعادة صياغة أعمالهم المنفعية ذات المصلحة الخاصة الضيقة في سياق جماعي أكثر. ولكن استحضاره «للكفاءة» في عمل ذلك باعتبارها تضاهي القوة (وحتى تحل محلها) وتحل محل لغة الحقوق، يشير إلى اتجاه آخر. إنه يشير إلى أطر مؤسساتية وموارد مؤسساتية مشتركة ولكنها غير مقسمة، ويشير إلى أن تعبئة هذه الأطر والموارد المؤسساتية هي ما يميز الاستراتيجيات الرسمية الصارمة عن حركات إضفاء الشرعية القاصرة على المستوى العقلي ــ المفهومي، مثل شرعنة القيم.

وعلى صعيد جوهري أكثر واقعية، فإن الإسلام على الخط يعتمد على انتشار حَرّكَهُ انتشار التعليم الجماعي في البلدان الإسلامية بعد الاستقلال. وهذا التعليم هو إقامة كفاءات مزدوجة في الخطابات عن الإسلام، من نموذج الإسلام السياسي القائم على أساس النصوص كمصادر، ومن تقانات المعلومات التي هي جزء فرعي أو زاوية متميزة من ذلك التعليم. وبشكل مفرط البساطة نسبياً، فإن الإسلام قد

أفلت من المدرسة، والصيغة المدرسية، ليس إلى التنوع غير المتناهي للإسلام الشعبي «المحلي»، ولكن إلى التنوع الأكثر تحديداً للجدل المتوضع في الطبقات الوسطى (وفيما بينها إلى حد ما) وفي صراعاتها حول كيفية إقامة حياة إسلامية ـ ما يتطلبه الدين ـ في العالم الحديث. فالاستراتيجيات الرسمية الصارمة تقيم علاقات بين المدارس والإسلام المحلي من جهة، وبين المدارس والجدل الديني في صفوف الطبقة الوسطى من جهة أخرى. وعلى الخط فإنها تقيم علاقات في الاتجاهين كليهما ومعهما في الوقت نفسه، أو مع كفاءات متعددة الأطراف. وهناك كفاءة تجلبها الإنترنيت للتشبيك الإسلامي، وهي ربطه بما يسميه مانويل كاستلز «البنية الاجتماعية الجديدة لمجتمعاتنا» (1996، ص469) وهو يقصد بذلك أن تقنيات كالإنترنيت تتناسب مع القاعدة المادية لطريقة الإنتاج. وكحد أدنى فإن المجال الذي ينفتح من ذلك هو أرضية وسطية بين إسلام «النخبة» المرتبط بالمدارس وشبكاتها. والإسلام الشعبي المرتبط بالأماكن وشبكاتها. وتنعكس وسيطة هذه الأرضية في تعدد اللغات. والإنترنيت شريحة من هذه الأرضية، مكونة جوهرياً من الناس الذين يسكنون فيها وممارساتهم. وهي تتميز في المرحلة المبكرة بخطابات متعددة اللغات، وفي وقت أحدث بنوع أوسع من الممارسات المتعددة اللغات.

وأخيراً، فإن طريقة تصوّر الإنترنيت لها أهميتها. فوضعها في إطار كونها وسيلة يميل إلى تركيز الانتباه على تكاثر المرسلين الذي يميزها عن أجهزة الإعلام السابقة، التي تقدم القالب. وهذا التأطير يؤكد على بعد سياسي يتقاطع مع الجوانب النقدية للإحياء الإسلامي المعاصر وتوسيعه لكفاءات الدين كخطاب سياسي انتقادي. ولكن الإنترنيت هي تكنولوجيا أيضاً. وهي باعتبارها تكنولوجيا تنطوي على مجموعة مختلفة من الفاعلين والكفاءات، من التمويل إلى الهندسة، ومن الفنون إلى الإدارة التي تأتي عاداتها ـ كفاءاتها ـ إلى المقدمة في جعل الإسلام على الخط يناسب مقاييسها، واحتياجاتها، ومصادرها. ولا يبدو أن فرق الإنترنيت هو أنها تقدم ملاذاً للبدائل ولكنها توجد في القدرات والموارد والعادات التي توصلها إلى الممارسات الرسمية الصارمة. وهذه تقوم أولاً بإعادة مركز معتدل للتعابير عن الإسلام إلى

الإنترنيت ثم تقوم ـ عن طريق كفاءاتها وممارساتها ـ بتوسيع الأرضية الوسيطة المفقودة في الطبقتين الأقدم ـ الطبقة النخبوية والطبقة الشعبية ـ وفي الطبقات الجديدة للإسلام الأصولي المتشدد والتقليدي.

الحواشي

تعتمد هذه الدراسة على عدة مشاريع بحوث وحالات تعاون تشمل مؤتمراً عن الإسلام في الطباعة تم تنظيمه في مركز بيلاجيو التابع لمؤسسة روكفلر على يد ديل إيكلمان، وعلى دراسة مقارنة لمجددي الإنترنيت في أربعة بلدان عربية، دعمتها منح من معهد السلام الأميركي (بالتعاون مع مايكل س. هدسون) ومن المركز الأميركي للبحوث الشرقية في عمان بالأردن. وقد قدمت نسخ مبكرة من هذه المقالة إلى جامعة ديوك في معهد صيفي حول المجالات العامة والهويات الإسلامية في كلية دارتموث، بدعم من مؤسسة آلكساندر فون همبولدت،و في اجتماع لمشروع دراسات المناطق الإسلامية في اليابان. وأشعر بالامتنان لبروس لورانس وكارل إرنست لتعليقاتهما وتشجيعهما، مما جعل المناقشة هنا أكثر وضوحاً.

(1) إن أفضل تاريخ حقيقي للإنترنيت هو من تأليف جانيت أبّات (1999) التي توضح تركيب «اختراعها»، وجذورها في الهندسة، وفهم المهندسين لها كبرمجيات تحصل على مصادر الأدوات الصلبة. وللاطلاع على رواية المدراء الرئيسيين عن إيجاد الإنترنيت المسرودة في سياق البرمجيات المكتوبة والقرارات المتخذة، قارن لارنيت وشركاه (1997).

(2) إن الارتباط أكثر من مجازي. فشركة البرمجيات التي صممت موقع IslamOnline.net وتقوم بإنتاجه هي التي صممت أيضاً موقع محطة

تلفزيون الجزيرة العاملة بواسطة الأقمار الصناعية، وذلك باستخدام التكنولوجيا نفسها.

obeikandl.com